﴿ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾

قلنا : إن كلمة (خير) تُطلق ويُراد بها ما يقابل الشر ، كما فى قوله تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾ ﴾ [الزلزلة]

وتُطلق ويُراد بها الأحسن فى الخير ، تقول : هذا خير من هذا ، فكلاهما فيه خير ، ومنه قول رسول الله ﷺ : « المؤمن القوى خير وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كُلٍّ خير »(١) فهى بمعنى التفضيل ، أى : أخير منها ، ومن ذلك قول الشاعر :

زَيْدٌ خِيارُ النَّاسِ وابْنُ الأَخْيرِ

فجاء بصيغة التفضيل على الأصل . وتقول : هذا حَسَن ، وذلك أحسن .

فالمعنى هنا : ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا .. ﴿٨٤﴾ ﴾ [القصص] أى : خير يجيئه من طريقها ، أو إذا عمل خيراً أعطاه الله أخير منه وأحسَن ، والمراد أن الحسنةَ بعشر أمثالها .

والحق سبحانه يعطينا صورة توضيحية لهذه المسألة ، فيقول سبحانه : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ﴾ [البقرة]

(١) أخرجه أحمد بن حنبل فى مسنده (٢/٣٦٦ ، ٣٧٠) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٦٦٤) ، وابن ماجة فى سننه (٧٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

فقوله تعالى : ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ .. (٨٤) ﴾ [القصص] قضية عقدية ، تثبت وتُقرِّر الثواب للمطيع ، والعقاب للعاصى ، ومعنى ﴿ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ .. (٨٤) ﴾ [القصص] أى : أتى بها حدثاً لم يكُنْ موجوداً ، فحين تفعل أنت الحسنة فقد أوجدتَها بما خلق الله فيك من قدرة على الطاعة وطاقة لفعل الخير .

أو المعنى : جاء بالحسنة إلى الله أخيراً لينال ثوابها ، ولا مانع أن تتجمع له هذه المجيئات كلها ليُقبل بها على الله ، فيجازيه بها فى الآخرة .

لكن ، هل ثواب الحسنة مقصور فقط على الآخرة ، أم أن الدين بقضاياه جاء لسعادة الدنيا وسعادة الآخرة ؟ فما دام الدين لسعادة الدارين فللحسنة أثر أيضاً فى الدنيا ، لكن مجموعها يكون لك فى الآخرة .

وهذه الآية جاءت بعد الحديث عن قارون ، وبعد أن نصحه قومه ، وجاء فى نصحهم : ﴿ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ .. (٧٧) ﴾ [القصص] إذن : فطلبهم أن يُحسن كما أحسن الله إليه جاء فى مجال ذكر الحسنة ، والحسنة أهى الشىء الذى يستطيبه الإنسان ؟ لا ، لأن الإنسان قد يستطيب الشىء ثم يجلب عليه المضرة ، وقد يكره الشىء ولا يستطيبه ، ويأتى له بالنفع .

فمن إذن الذى يحدد الحسنة والسيئة ؟ ما دام الناس مختلفين فى هذه المسألة ، فلا يحددها إلا الله تعالى ، الذى خلق الناس ، ويعلم ما يُصلحهم ، وهو سبحانه الذى يعلم خصائص الأشياء ، ويعلم ما يترتب عليها من آثار ، أما الإنسان فقد خلقه الله صالحاً للخير ، وصالحاً للشر ، يعمل الحسن ، ويعمل القبيح ، وربما اختلطت عليه المسائل .

لذلك يقولون في تعريف الحسنة : هي ما حسَّنه الشرع ، لا ما حسَّنْتها أنت ، فنحن مثلاً نستسيغ بعض الأطعمة ، ونجد فيها متعة ولذة ، مع أنها مُضرة ، في حين نأنف مثلاً من أكل الطعام المسلوق ، مع أنه أفيد وأنفع ؛ لذلك يقول تعالى في صفة الطعام : ﴿ فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ۝٤ ﴾ [النساء] لأن الطعام قد يكون هنيئاً تجد له متعة ، لكنه غير مريء ويُسبِّب لك المتاعب بعد ذلك .

الحق سبحانه يقول هنا : ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا .. ۝٨٤ ﴾ [القصص] فالحسنة خير ، لكن الثوابَ عليها خيرٌ منها أي : أخير ؛ لأنه عطاء دائم باقٍ لا ينقطع ، أو خير يأتيك بسببها . كما يقول أصحاب الألغاز واللعب بالكلمات : محمد خير من ربه ، والمعنى : خير يصلنا من الله ، ولا داعي لمثل هذه الألغاز طالما تحتمل معنى غير مقبول .

ثم يقول سبحانه : ﴿ مَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ .. ۝٨٤ ﴾ [القصص] لم يقُل الحق سبحانه : فله أشر منها ، قياساً على الحسنة فنضاعف السيئة كما ضاعفنا الحسنة ، وهذه المسألة مظهر من مظاهر رحمة الله بخَلْقه ، هذه الرحمة التي تتعدَّى حتى إلى العُصَاة من خَلْقه .

لذلك قال ﴿ فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٨٤ ﴾ [القصص] أي : على قَدْرها دون زيادة .

واقرأ إنْ شئتَ قوله تعالى في سورة (عم) : ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۝٣١ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ۝٣٢ وَكَوَاعِبَ[1] أَتْرَابًا ۝٣٣ وَكَأْسًا دِهَاقًا[2] ۝٣٤ لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا كِذَّابًا ۝٣٥ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ۝٣٦ ﴾ [النبأ]

---

(١) الكواعب الأتراب : أي فتيات ناضجات متماثلات في السن . وكعب الثدي : برز ونهد . يُقال للفتاة : كاعب . أي : ذات ثدي بارز . [القاموس القويم ٢/١٦٤] .

(٢) الكأس الدهاق : الممتلئة المتتابعة على شاربيها . وقوله تعالى ﴿ وَكَأْسًا دِهَاقًا ۝٣٤ ﴾ [النبأ] أي : هي الامتلاء الدائم ، وهذا كناية عن النعيم الدائم . [القاموس القويم ١/٢٣٤] .

فحساباً هنا لا تعنى أن الجزاء بحساب على قدر العمل ، إنما تعنى كافيهم فى كل ناحية من نواحى الخير ، ومنه قولنا : حسبى الله يعنى : كافينى .

وفى المقابل يقول سبحانه فى السيئة : ﴿ جَزَاءً وِفَاقًا (٢٦) ﴾ [النبأ] أى : على قدرها موافقاً لها .

إذن : فربنا - عز وجل - يعاملنا بالفضل لا بالعدل ؛ ليغرى الناس بفعل الحسنة ، وأنت حين تفعل الحسنة فأنت واحد تُقدِّم حسنتك إلى كل الناس ، وفى المقابل يعود عليك أثر حسنات الجماهير كلها ، فينالك من كل واحد منهم حسنة ، وكأنه (أوكازيون) حسنات يعود عليك أنت .

ثم يقول الحق سبحانه لنبيه :

﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٨٥) ﴾

معنى فرض : ألزم وأوجب وحتَّم . وأصل الفَرْض الحزّ والقطع ، كما تقطع شيئاً بالسكين مثلاً تُسمَّى فرضاً ؛ لأنها خرجتْ عن طبيعة تكوينها ، كذلك القرآن يُخرج النفس عن طبيعة مُشْتهاها ، ويقطع عليها مشيئتها ، ويردّها إلى مشيئة الله ؛ لذلك يقول سبحانه فى أول سورة النور : ﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا .. (١) ﴾ [النور]

يعنى : حتَّمناها وألزمنا بها ، والإلزام يعنى ردّ النفس إلى ما يريده خالقها منها ، بصرْف النظر عما تشتهيه هى ، فقد يأمرها بما تكره ، وينهاها عما تحب . إذن : يقطع سيال النفس ؛ لأنها عادة

ما تكون أمَّارة بالسوء ، تنظر إلى العاجل ، ولا تهتم بالآجل ولا تعمل له حساباً .

فالقرآن منهج الله بافعل ولا تفعل ، هو الذى يكبح جماح النفس ، ويُحدِّد لها مجال مشيئتها ؛ لأن الخالق - عز وجل - خلق النفس ، وجعل مشيئتها صالحة لعمل الخير ، ولعمل الشر .

وسبق أن تكلمنا عن الفرق بين عباد وعبيد وقلنا : إن الخَلْق جميعاً عبيد لله ، المؤمن منهم والكافر ، وإنْ تأبَّى الكافر على الله فى الإيمان ، فهو مقهور له تعالى فى مسائل أخرى ، كالمرض والموت وغيره ، ثم أعطانا الله تعالى مجالاً للاختيار ، ليثيب من يُثيب بحق ، ويُعذِّب مَنْ يُعذب بحق .

والعاقل حينما يرى أنه مقهور لله فى قدريات لا يستطيع منها فكاكاً ، وليس له فيها تصرف ، فيتنازل عن مراده ، وعن اختياره لمراد ربه واختيار ربه ، ويرضى أنْ يكون مُسيَّراً فى كل شىء ، وهنا يتحولون من عبيد إلى عباد .

فالعباد إذن هم الذين يخرجون عن اختياراتهم الممنوحة لهم من الله إلى مراد الله فى الحكم ، وبهذا المنطق يكون الجميع فى الآخرة عباداً ؛ لأنه لا اختيار لهم ، ويستوى فى ذلك المؤمن والكافر ، يوم يقول سبحانه : ﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) ﴾ [غافر]

وسُمِّى إنزال القرآن فَرْضاً لما فى القرآن من تكاليف ، وهى عادةً ما تكون شاقة على النفس ، ألاَ ترى قوله تعالى عن الصلاة ، وهى أم العبادات : ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥) ﴾ [البقرة]

فلا يعرف منزلتها ومكانتها إلا خاشع ؛ لذلك كان النبى ﷺ يقول

لبلال : « أرحنا بــها يا بلال »[1] ويقـول : « وجُعلَتْ قـرة عـينى فى الصلاة »[2] ؛ لأنه ﷺ أحـبهـا وعشـقهـا ، حتى صـارت قُرَّة عـينه ، ومُنْتهى راحته .

إذن : أول ما يفرض التكليف لا بُدَّ أن يكون شـاقاً ؛ لذلك يحتاج إلى صلابة إيمـان وجلَد يقين ، بحيث تثق فى أن العـمل الشاق عليك الآن سيجلب لك الخير والسعادة الباقية الدائمة فى الآخرة .

ويقول تـعالى عن القـتال : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ .. (٢١٦) ﴾ [البقرة] فلا شكَّ أنه مكروه للنفس ، لكن إن استحضرتَ الجزاء ، وعرفتَ أنه : إمـا النصر ، وإما الشهـادة ، فإنه يحلو لك حتى تعـشقه ، وتبادر أنت إليه ، كالصحابى فى بدر بعـد أن سمع ما للشهيد من الأجر وكان فى فـمه تمـرة يمضـغهـا فقـال : « أليس بينى وبين الجنة إلا أنْ أقاتل فأُقتل » ؟ ثم ألقى التمرة وأسرع إلى ساحة القتال[3] .

لذلك الحق سبحانه يُضخم الجزاءات فى نفس المؤمن ؛ ليقبل على العـمل بحب وشهـوة . ومن هنا يقول بعض العـارفين الـذين عشـقوا الخيـر حتى أصـبح شهوةَ نفْس عـندهم : أخشى ألاَّ يُثيـبنى الله على الطاعة ، لماذا ؟ يقـول : لأننى أصبحتُ أشتـهيها ، أى : كمـا يشتهى أهل المعصية المعصية .

---

(١) أخرجه أحمـد فى مسنده (٣٦٤/٥) ، أبو داود فى سننه (٤٩٨٥) عن رجل من الصحابة .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (١٢٨/٣) ، والنسائى فى سننه (٦١/٧) ، والحاكم فى مستدركه (١٦٠/٢) من حديث أنس رضى الله عنه . قال الحاكم : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبى .

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٠٤٦) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٨٩٩) فى كتاب الإمارة من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنه .

وحين يصل الإيمـان بصاحبه إلـى درجة أنه يعشق الطاعة ، فـقد أصبح ربانياً يثق فيما عند الله من الجزاء .

وكـان النبى ﷺ يقـوم الليل حتى تـورمَتْ قدمـاه ، فلمـا سألتْـه السيدة عائشة : ألم يغفر لك ربك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : « أفلا أكون عبداً شكوراً »(١) ؟

ومعنى : ﴿ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ .. ﴿٨٥﴾ ﴾ [القصص] يعنى : يجـازيك أفـضل الجـزاء ، ونزلتْ هذه الآيـة لمـا اضطهـد أهلُ مكة رسـولَ الله وآذوْه ، حتى اضطروه للذهـاب إلى الطائف ليبحث فـيها عن نصـير ، لكنهم لم يكونوا أقلَّ قسوة من أهل مكة ، فعزَّ على رسول الله النصير فيـها ، وعـاد منكسراً حـزيناً لم يجد مَنْ يدخل فـى جواره ، إلى أن أجاره مطعم بن عدى .

وتأمل حين يكون رسـول الله بجلالة قدره لا يجـد مَنْ يناصره ، أو يُدخله فى جواره ، أما الصحابة فلم تكُنْ لهم شوكة بعد ، ولا قوة لحماية رسول الله ، وفى هذه الفترة لاقـوا المشاق فى سبيل الدعوة ، فحـاصرهم الكفـار فى شعْب أبى طالب ، وفـرضوا عليـهم المقـاطعة التـامة حـتى عـزلوهم عن الناس ، ومنعـوا عنهم الطـعام والشـراب ، والبـيع والشراء ، حـتى الزواج ، وحتـى اضطروا إلى أكل المخلَّفـات وأوراق الشجر .

لذلك أمـرهم الله بالهجـرة ، والهجـرة تكون إلى دار أمن ، أو إلى دار إيمان ، إلى دار أمن كالهـجرة إلى الحبشة حـيث قال لهم رسول الله ﷺ مبـيِّناً حـيثـية الهـجرة إليـها : « إن فـيهـا ملكاً لا يُظلم عنده

---

(١) حديث متـفق عليه . أخرجه البـخارى فى صحيحـه (٤٨٣٧) ، وكذا مسلم فى صحـيحه (٢٨٢٠) من حديث عـائشة رضى الله عنهـا . وعند البخـارى زيادة : « فلما كـثر لحـمه صلى جالساً ، فإذا أراد أن يركع قام ، فقرأ ثم ركع » .

أحد »[1] يعنى : النجاشى ملك الحبشة ، وفعـلاً صدق فيه قول رسول الله ، فلمـا أرسلتْ قـريـش فى إثرهم مَنْ يكلم النجـاشـى فى طلبـهم وإعادتهم إلى مكة ، رفض أن يسلمهـم ، وأن يُمكِّن قريشاً منهم ، مع أن هدايا قريش كانت عظيمة ، والإغراء كان كبيراً .

وهذا يدل على عـظمـة رسـول الله ، وعلى فكـره الواسع ، وعلى دراسة الخريطة من حوله ، ومعرفة مَنْ يـصلح لهجرة صحابته إليه ، فاختياره ملك الحبشـة لا يأتى إلا إما بإلهام من الله ، أو بذكاء كبير ، وهو رجل أمى فى أمـة أمـيـة ، ولو لم يذهب وفـد قـريش فى طلب المهاجرين ما ظهر لنا الدليل على صدق مقولة رسول الله .

ونتـيجة « لا يظـلم عنده أحد » فـقد شرَّفـه الله بالإسلام فـأسلم ووكَّله رسـول الله فى أن يُزوِّجـه من السـيـدة أم حـبـيـبـة بنت أبى سفيان ، وكانت رضى الله عنها من المهاجرين الأوائل إلى الحبشة مع زوجـهـا الذى تنصَّـر هناك ، وبقـيتْ هـى على دينهـا وتمـسكتْ بعقيدتها .

وفى هذا دليل أولاً : على مدى ما كان يـلاقيه المؤمنون من إيذاء الكافرين ، ثانياً : دليل على الطاعة الواعـية للزوج ، فقد آثرت الخروج مع زوجها لا عشْـقاً له ، ولا هياماً به ، إنما فراراً مـعه بدينها ؛ لذلك لما تنصَّر لم تتردد فى تركه ؛ لذلك طلبـهـا رسول الله لنفسه ، ثم لما مـات النجاشى صلى عليـه رسـول الله وترحَّم عليه . هذه هى هجـرة الإيمان إلى دار الأمن .

(١) أورده ابن هشام فى السـيرة النبوية (٣٢١/١) : « قـال ابن إسحاق : فلمـا رأى رسول الله ﷺ ما يصـيب أصحـابه من البلاء ، ومـا هو فيـه من العافـية ، وأنه لا يقـدر على أن يمنعهم مـما هم فيـه من البلاء . قال لهـم : لو خرجتم إلى أرض الحـبشة ، فـإن بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد ، وهى أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه » .

ثم كانت الهجرة بعد ذلك إلى دار الإيمان ، إلى المدينة ، بعد بيعة العقبة الأولى والثانية ، وبعد أن وجد رسول الله أنصاراً يتحملون معه أعباء الدعوة ، وقد ضرب الأنصار فى المدينة أروع مَثَل فى التضحية التى ليس لها مثيل فى تاريخ البشرية .

ذلك أن الرجل أغير ما يكون على زوجته ، فلا يضِنّ على غيره بما يملك ، فتعطينى سيارتك أركبها ، أو بيتك أسكن فيه ، أو ثوبك ألبسه ، وأتقمَّش به ، أما الزوجة فتظل مصونة لا يجرؤ أحد على النظر إليها .

لكن كان للأنصار فى هذه المسألة نظرة أخرى حيث أشركوا إخوانهم المهاجرين فى كل شىء حتى فى زوجاتهم ، فقد راعوا فيهم خروجهم من أهلهم وبلادهم ، وراعوا غربتهم وما لهم من إرْبة وحاجة للنساء .

فكان الواحد منهم يقول لأخيه : انظر إلى زوجاتى ، فأيتهنَّ أعجبتك أُطلِّقها ، وتتزوجها أنت ، هذه تضحية لا نجد لها مثيلاً فى تاريخ الناس حتى عند الكفرة .

ثم أُمر رسول الله ﷺ بالهجرة إلى المدينة ، فخرج خُفْيَة فى حين خرج عمر مثلاً جهراً وعلانية ، حتى إنه وقف ينادى فى أهل مكة بأعلى صوته يتحدى أهلها عند خروجه : مَنْ أراد أنْ تثكله أمه ، أو يُيتم ولده ، أو تُرمَّل زوجته فليلْقنى خلف هذا الوادى .

أما رسول الله فقد خرج خُفْيَة ، وهذه المسألة يقف عندها البعض أو تَخْفى عليه الحكمة منها ، فرسول الله ﷺ كان دائماً أُسْوة للضعيف ، أما القوى فلا يحتاج إلى حماية أحد ، ولا عليه إنْ خرج علانية ؛ لذلك لا يستحى أحد أن يتخفى كما تخفى رسول الله .

ثم إنك حين تتأمل : نعم خرج رسول الله خُفْية لكنها خُفْية التحدى ، فقد خرج من بين فتيانهم المتربصين به ، وعفَّر وجوههم بالتراب ، وهو يقول « شاهت الوجوه »[1] .

ومع ذلك لم يمنعه تأييد الله له أنْ يأخذ بأسباب النجاة ، فخالف الطريق ؛ لأن كفار مكة كانوا يعرفون أن وجهته المدينة لما عقد بيعة العقبة مع الأنصار ؛ لذلك ترصدوا له على طريقها ، وأرسلوا العيون للبحث عنه ، وجعلوا جُعْلاً لمن يأتيهم به ﷺ .

والمتأمل فى حادث الهجرة يجد أنها خطة محكمة تراعى كل جوانب الموقف ، كأن الله تعالى يريد أنْ يُعلِّمنا فى شخص رسول الله ﷺ ألاَّ نهمل الأسباب ، وألاَّ نتصادم مع الواقع ما دُمْنا قادرين على ذلك .

فلما خرج رسول الله ﷺ من مكة وهى بلده ، وأحب البلاد إلى قلبه قال : « اللهم إنك أخرجتنى من أحب البلاد إلىَّ ، فأسكنِّى أحب البلاد إليك »[2] .

لذلك إنْ كانت مكةُ محبوبةٌ لرسول الله ، فالمدينة محبوبة لله ؛ لذلك بعد أن خرج رسول الله من مكة وقارب المدينة حَنَّ قلبه إلى مكة ، فطمأنه ربه بهذه الآية : ﴿ إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ .. (٨٥) ﴾ [القصص]

---

(١) ورد قول رسول الله ﷺ هذا فى حديث الهجرة عن ابن عباس عند أحمد فى مسنده (٣٦٨/١) وكذلك فى غزوة حنين فى صحيح مسلم (١٧٧٧) من حديث إياس بن سلمة عن أبيه ، وأحمد فى مسنده (٢٨٦/١) والدارمى فى سننه (٢١٩/٢) من حديث أبى عبد الرحمن الفهرى .

(٢) أخرجه الحاكم فى مستدركه (٣/٣) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، وقال : هذا حديث رواته مدنيون من بيت أبى سعيد المقبرى ، قال الذهبى : « لكنه موضوع ، فقد ثبت أن أحب البلاد إلى الله مكة ، وسعد بن سعيد المقبرى ليس بثقة » .

فالذى فرض عليك مشقة التكاليف ، وحمَّلك مشاق الدعوة والإقناع بها ، وتنفيذ أحكامها . هو الذى سيردُّك إلى بلدك ردَّ نصر ، وردّ فتح ، وما أشبهَ ردَّ رسول الله إلى بلده بردِّ موسى عليه السلام إلى أمه فى قوله تعالى لأم موسى : ﴿ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ .. ⑦ ﴾ [القصص] ليس رَدّاً عادياً ، إنما ﴿ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ⑦ ﴾ [القصص]

إذن : سيُردُّ إليك ولدك ، لكن سيُرد رسولاً منتصراً . وكما صدق الله فى ردِّ موسى يصدق فى ردِّ محمد .

ومعنى ﴿ مَعَادٍ .. ﴿٨٥﴾ ﴾ [القصص] ليس هو الموعد كما يظن البعض ، إنما يراد به المكان الذى تعود إليه بعد أنْ تفارقه ، فالمعنى : سنردُّك إلى المكان الذى تحنُّ إليه ، ويتعلق به قلبك .

أو : نردك إلى (معاد) أى : إلينا ، كما قال تعالى : ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [غافر] ولا مانع من إرادة المعنيين معاً .

ثم يقول سبحانه : ﴿ قُل رَّبِّى أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ ﴾ [القصص] الحق تبارك وتعالى يعلِّم رسوله محمداً ﷺ الجدل العفيف ، لا الجدل العنيف ، يُعلِّمه كيف يردُّ على ما قالوا عن الذى يؤمن به (صبأ فلان) يعنى : خرج عن دين آبائه وهم يعتقدون أنه الحق ، فكأن الذى يؤمن فى نظرهم خرج من الحق إلى الباطل .

إذن : فهذه عقول تحتاج إلى سياسة وجدل ، كما قال سبحانه : ﴿ وَجَادِلْهُم بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ .. ﴿١٢٥﴾ ﴾ [النحل] ؛ لأن الجدل العنيف يزيد خصمك عناداً ولجاجة ، أمَّا الجدل العفيف فيستميل القلوب ويعطفها نحوك ؛ لذلك يرد رسول الله بقوله : ﴿ قُل رَّبِّى أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ ﴾ [القصص] أى : جاء بالهدى من عند الله

وهو النبى ﷺ : ﴿ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ ﴾ [القصص]

ثم يعطى الحق - تبارك وتعالى - لنبيه ﷺ دليلاً من واقع حياته ؛ ليطمئن على أنه مُؤيَّد من ربه ، وأنه سبحانه سيفى له بما وعد ، ولن يتخلى عنه ، وكيف يختاره للرسالة ، ثم يتخلى عنه ؟

﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾

يعنى : إذا كنت تتعجب ، أو تستبعد أنْ نردَّك إلى بلدك ؛ لأن الكفار يقفون لك بالمرصاد ، حتى أصبحت لا تُصدِّق أنْ تعود إليها ، فانظر إلى أصل الرسالة معك : هل كنت تفكر أو يتسامى طموحك إلى أنْ تكون رسولاً ؟ إنه أمر لم يكُنْ فى بالك ، ومع ذلك أعطاك الله إياه واختارك له ، فالذى أعطاك الرسالة ولم تكُنْ فى بالك كيف يحرمك من أمر أنت تحبه وتشتاق إليه ؟

إذن : تقوم هذه الآية مقامَ الدليل والبرهان على صدْق ﴿ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ .. ﴿٨٥﴾ ﴾ [القصص] وفى موضع آخر يؤكد الحق سبحانه هذا المعنى ، فيقول سبحانه : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ .. ﴿٥٢﴾ ﴾ [الشورى] فالذى أعطاك الرسالة لا يعجز أن يحقق لك ما تريد .

وقوله تعالى : ﴿ إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ .. ﴿٨٦﴾ ﴾ [القصص] هذا استثناء يسمونه استثناء منقطعاً .

والمعنى : ما كنت ترجو أن يُلْقى إليك الكتاب إنما ألقيناه ، وما ألقيناه إليك إلا رحمة لك من ربك .

وما دام هؤلاء الكفار عاندوك وأخرجوك ، فإياك أنْ تلين لهم ﴿فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ (٨٦)﴾ [القصص] أى : معيناً لهم مسانداً ، وكانوا قد اقترحوا على رسول الله أن يعبد آلهتهم سنة ، ويعبدون إلهه سنة[1] ، فحذره الله أنْ يُعينهم على ضلالهم ، أو يجاريهم فى باطلهم ، لذلك كان النبى ﷺ لا يناصر ظالماً أو مجرماً ، حتى إن كان من أتباعه .

وسبق أن ذكرنا فى تأويل قوله تعالى : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥)﴾ [النساء] قصة اليهودى زيد بن السمين لما جاءه المسلم طُعْمة بن أبيريق ، وأودع عنده درْعاً له ، وكان هذا الدرع مسروقاً من آخر اسمه قتادة بن النعمان ، فلما افتقده قتادة بحث عنه حتى وجده فى بيت اليهودى ، وكان السارق قد وضعه فى كيس للدقيق ، فدلَّ أثر الدقيق على مكان الدرع فاتهموا اليهودى بالسرقة ، ولما عرفوا حقيقة الموقف أشفقوا أن ينتصر اليهودى على المسلم ، خاصة وهم حديثو عهد بالإسلام ، حريصون على ألاّ تُشوه صورته .

لذلك شرحوا لرسول الله هذه المسألة ، لعله يجد لها مخرجاً ، فأدار رسول الله المسألة فى رأسه قبل أنْ يأخذ فيها حُكْماً ؛ وعندها نزل[2] الوحى على رسول الله : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ

---

(١) عن ابن عباس أن قريشاً دعت رسول الله ﷺ إلى أن يعطوه مالاً فيكون أغنى رجل بمكة ويزوجوه ما أراد من النساء ، فقالوا : هذا لك يا محمد وكُف عن شتم آلهتنا ولا تذكر آلهتنا بسوء . فإن لم تفعل فإنا نعرض عليك خصلة واحدة ولك فيها صلاح . قال : ما هى ؟ قالوا : تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة . قال : حتى أنظر ما يأتينى من ربى ، فجاء الوحى من عند الله ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢)﴾ [الكافرون] . أورده السيوطى فى الدر المنثور (٨/٦٥٤) وعزاه لابن جرير الطبرى وابن أبى حاتم والطبرانى .

(٢) أورده الواحدى النيسابورى فى « أسباب النزول » (ص ١٠٣) ، وقال : « هذا قول جماعة من المفسرين » .

﴿بَيْنَ النَّاس .. (١٠٥)﴾ [النساء] أى : جميع الناس ، المؤمن والكافر ﴿بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥)﴾ [النساء] أى : تخاصم من أجلهم ولصالحهم ﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٠٦)﴾ [النساء] أى : مما خطر ببالك فى هذه المسألة .

وفى بعض الآيات نجد فى ظاهرها قسوة على رسول الله وشدة مثل : ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ (٤٤) لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦)﴾ [الحاقة]

وكل ما يكون فى القرآن من هذا القبيل لا يُقصد به سيدنا رسول الله ﷺ ، إنما الحق سبحانه يريد أن يعطى للأمة نموذجاً يلفت أنظارهم ، وكأنه تعالى يقول لنا : انتبهوا فإذا كان الخطاب لرسول الله بهذه الطريقة ، فكيف يكون الخطاب لكم ؟

كأن يكون عندك خادم يعبث بالأشياء حوله ، فتُوجِّه الكلام أنت إلى ولدك : والله لو عبثتَ بشىء لأفعلنَّ بك كذا وكذا ، فتوجِّه الزجر إلى الولد ، وأنت تقصد الخادم ، على حَدِّ المثل القائل (إياك أعنى واسمعى يا جارة) .

لذلك يقول بعض العارفين :

مَا كَان فى القُرآن مِنْ نِذَارةٍ   إلى النبىِّ صَاحِبِ البِشَارةِ
فكُنْ لَبِيباً وافْهَم الإشَارةَ   إيَّاك أعنى واسْمعى يَا جَارة

يعنى : اسمعوا يا أمة محمد ، كيف أخاطبه ، وأُوجِّه إليه النذارة ، مع أنه البشير .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾

قوله تعالى ﴿ وَلا يَصُدُّنَّكَ .. ﴿٨٧﴾ ﴾ [القصص] أى :لا يصرفنك ولا يمنعنك المشركون ﴿ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ .. ﴿٨٧﴾ ﴾ [القصص] أى : قراءتها وتبليغها للناس ، وقوله : ﴿ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [القصص] هذا أيضاً داخل فى (إياك أعنى واسمعى يا جارة) لأن رسول الله أبعد ما يكون عن الشرك ، وليس مظنة له .

﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ .. ﴿٨٨﴾ ﴾ [القصص] كسابقتها ؛ لأن رسول الله ﷺ ليس مظنة أن يدعو مع الله إلهاً آخر ﴿ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ .. ﴿٨٨﴾ ﴾ [القصص] أى : لا معبودَ بحق إلا هو .

ولو كان معه سبحانه وتعالى آلهة أخرى لواجهوه : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً ﴿٤٢﴾ ﴾ [الإسراء] أى : سَعَوْا إليه لينازعوه الألوهية ، أو ليتقرَّبوا إليه .

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ .. ﴿٨٨﴾ ﴾ [القصص] الوجه فى عُرْفنا ما به المواجهة فى الإنسان ، وكل شىء يصف به الحق سبحانه نفسه علينا أنْ نصفه سبحانه به ، بناءً على وصفه فى إطار قوله سبحانه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الشورى]

فالحق سبحانه له وجه ، لكن ليس ككل الوجوه ، وهكذا في كل الصفات التي يشترك فيها الحق سبحانه مع الخَلْق ، وأنت آمنتَ بوجود الله ، وأن وجوده ذاتي ، ليس كوجودك أنت .

وقوله : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ .. (٨٨) ﴾ [القصص] كلمة شيء يقولون : إنها جنس الأجناس يعني : أي موجود طرأ عليه الوجود يسمى (شيء) مهما كان تافهاً ضئيلاً . وقد تكلم العلماء في : أيطلق على الله تعالى أنه شيء لأنه موجود ؟

قالوا : ننظر في أصل الكلمة (شيء) من شاء شيئاً ، فالشيء شاءه غيره ، فأوجده ؛ لذلك لا يقال لله تعالى شيء ؛ لأنه سبحانه ما شاءه أحد ، بل هو سبحانه موجود بذاته .

وفي آية أخرى يقول تعالى في عمومية الشيء : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء] يعني : كل ما يُقال له شيء موجود سبق وجوده عدم ، إلا يسبح بحمد الله ، البعض قال : هو تسبيح دلالة على موجدها ، وليس تسبيح مقالة حقيقية ، لكن قوله سبحانه ﴿ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء] يدل على أنه تسبيح حقيقي ، فكل شيء يُسبِّح بلغته وبما يناسبه .

وقد أثبت الله تعالى منطقاً للطير وتسبيحاً للجبال ، ولو فهمتَ لغة هذه الأشياء لأمكنك أنْ تعرف تسبيحها ، لكن كيف نطمع في معرفة لغات الحجر والشجر ، ونحن لا نفهم لغات بعضنا ، فإذا لم تكن تعرف مثلاً الإنجليزية ، أتعرف ماذا يقول المتحدث بها لو سبّح بها الله وهو بشر مثلك يتكلَّم بنفس طريقتك وبنفس الأصوات ؟

لذلك يقولون في معجزاته ﷺ : سبَّح الحصى في يده ، والصواب أن نقول : سمع رسول الله تسبيح الحصى في يده ، وإلاَّ فالحصى

يُسبِّح فى يد رسـول الله ، ويُسبِّح فى يد أبى جـهل . ومن ذلك أيضاً حنين الجـذع لرسول الله ﷺ . ثم ألم يقل الحق سـبحـانه : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ .. (٦٨) ﴾ [النحل]

ألم يَقُلْ عن الأرض : ﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَـا (٥) ﴾ [الزلزلة] ؟ ألم يُثبت للنملة كلاماً ؟ ألم يكلم الهدهد سليـمانَ عليه السلام ، وفهم منه سليمانُ ؟

إذن : لكل جنس من المخلوقات لغته التى يفهمها أفراده عن بعض ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ .. (٤١) ﴾[النور] وإنْ شاء الله أطلع بعض خَلْقه على هذه اللغات ، وأفهمه إياها .

ومعنى ﴿ هَالِكٌ .. (٨٨) ﴾ [القصص] البعض يظن أن الهـلاكَ خاصٌ بما فـيه روح كالإنسـان والحيـوان ، لكن لو وقفنا عند قـوله تعالى : ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ .. (٤٢) ﴾ [الأنفال]

إذن : فـالهلاك يقـابله الحـيـاة ، فكل شىء يهلك كـانت له حيـاة تناسـبـه ، وإنْ كنا لا نفـهم إلا حـيـاتـنا نحن ، والتى تذهب بخـروج الروح .

ومعنى : ﴿ إِلاَّ وَجْهَهُ .. (٨٨) ﴾ [القصص] أى : إلا ذاته تعالى ، ولم يقُلْ : إلا هو ؛ لأنه تعالى ليس شـيئاً ، وللوجه هنا معنى آخـر ، كما نقـول : فـعلتُ ذلك ابتـغـاءَ وجـه الله يعنـى : فـعلت والله فى بالى ، فالمعنى : كل شىء هالك ، إلا ما كان لوجه الله ، فلا يهلك أبداً ؛ لأنه يبقى لك وتنال خيره فى الدنيا وثوابه فى الآخرة .

ثم يقول سبحانه : ﴿ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٨) ﴾ [القصص] أى : له الحكم فى الآخرة يوم يقول ﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ .. (١٦) ﴾ [غافر] لكن

لماذا خصَّ الملك يوم القيامة ، وهو سبحانه له المُلْك الدائم في الدنيا وفي الآخرة ؟ قالوا : لأن هناك مُلْكاً في الدنيا ، يُملِّكه لخَلْقه ، كما قال سبحانه في النمرود : ﴿ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ .. (٢٥٨) ﴾ [البقرة] وقال سبحانه : ﴿ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ .. (٢٦) ﴾ [آل عمران]

إذن : فالملْك مُلْك الله ، وهو سبحانه الذي يُملِّك خَلْقه في الدنيا دنيا الأسباب ، لكن في الآخرة تُنزع الملكية من أيٍّ أحد إلا لله وحده . حتى إرادة الإنسان على جوارحه تُسلَب منه ، فتشهد عليه بما كان منه في الدنيا .

وإنْ أردتَ أن تعرف الآن صدْق هذه المسألة فانظر إلى الأمور القدرية التي تجري عليك ، كالمرض وكالموت وغيرها ، هل تستطيع أنْ تتأبى عليها ؟

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٨) ﴾ [القصص] أي : للحساب في الآخرة ؛ لأن الله تعالى لم يخلقنا عَبثاً ، ولن يتركنا هملاً ، بل لابد من الرجوع إليه ليحاسب كلاً منكم على ما قدَّم ، وما دُمْتم قد عرفتم ذلك ، فعليكم أن تحترموا المرجع إلى الله ، وتنظروا ماذا طلب منكم .

والمتتبع لهذا الفعل في القرآن يجد أنه جاء مرة مبنياً للمجهول (تُرجعون) وهو للكافر الذي تأبَّى على الله ، فنقول له : ستُرجع إلى الله ، وتُقذف في النار غَصباً عنك ، ورَغْماً عن أنفك ، فإنْ تأبَّيْتَ على الله في الدنيا ، فلن تتأبَّى عليه في الآخرة ، ويأتي مبنياً للمعلوم (ترجعُون) وهو للمؤمن الذي يشتاق لثواب الآخرة فيتهافت بنفسه ويُقبل عليه .


سُورَةُ العَنكَبُوتِ

